وكانت أبرز هذه المحاولات مشروع الهلال الخصيب، الذي بادر اليه نوري السعيد. وقد تضمن مشروعه، ضم سوريا الكبرى والعراق في إطار موحد. ولم يغفل مشروع السعيد مقترحات شكلت خطورة، في المدى الزمني البعيد، على المصير العربي، حيث أشار في مشروعه إلى إعطاء اليهود شبه استقلال ذاتي بضمانات دولية في فلسطين. مع توفير «الحماية» لمسيحي لبنان[٢٩]. فكان بهذا، قد زرع منذ ذلك التاريخ، بذرة كيانات غريبة على المنطقة لاستنادها إلى الجامعة الدينية لا القومية.

أما المشروع البريطاني الأخر، والذي عرف باسم مشروع سوريا الكبرى، فقد أسندت مهمة تحقيقه إلى الملك عبد الله، الذي طمع في توحيد سوريا تحت رايته. مما كان سيعني إعطاء فرصة للانكليز للسيطرة على بلاد لم تكن أصلاً خاضعة لنفوذهم كسوريا ولبنان، اللذين كانا قد احرزا للتو استقلالهما عن فرنسا.

لقد فشل المشروعان، لانهما «ولدا ميتين بسبب فقدان الأسرة الهاشمية نفوذها في الحركة القومية العربية»[٣٠]. وخاصة بعد ضرب تمرد رشيد عالي الكيلاني في العراق[٣١]، وعودة الحكم الهاشمي على أنقاضه. ويرى باتريك سيل أيضاً أن من بين الأسباب التي أدت إلى فشل المشروعين، معارضة كل من مصر والسعودية لهما.

واصلت بريطانيا، بعد فشل المشروعين، سعيها لدى الأقطار العربية لايجاد صيغة وحدوية تتماشى مع سياستها. وكان بديهياً أن تتوجه انظار البريطانيين نحو مصر، القاعدة التقليدية لبريطانيا. فقد أقنعت الأحداث، الساسة البريطانيين، من وجهة عسكرية، كما يقول جون مارلو (John Marlowe)، بأن «السيطرة الاستراتيجية على الشرق الأوسط تبقى عنصراً حيوياً في السياسة البريطانية الشاملة»... وأن قاعدة في مصر تبقى هي الشرط الأساسي لمثل هذه السيطرة الاستراتيجية»[٣٢]. فضلاً عما لمصر من أبعاد أخرى لم تغفل السياسة البريطانية أهميتها كالثقل العربي لها، ومواصفات أخرى متعددة، أهّلت مصر للقيام بدور الزعامة العربية المقترحة[٣٣]. وقد وجدت بريطانيا في جو النهوض القومي لدى مثقفي المنطقة العربية وجماهيرها، فرصة سانحة للالتفاف على مفهوم الوحدة العربية كمطلب جماهيري قاعدي، وذلك بالعمل على تاسيس شكل فوقي للوحدة تمثل، في ما بعد، بما عرف بجامعة الدول العربية.

بريطانيا تبادر

لا يختلف مؤرخو هذه الفترة والساسة المعاصرون لها على ما لبريطانيا العظمى من دور في بلورة مشروع الجامعة العربية وإخراجه إلى النور. فعبد الرحمن عزام، أول أمين عام للجامعة العربية، يشير في صفحات من مذكراته السرية، إلى أن فكرة الجامعة العربية قد خرجت بداية من لندن[٣٤] وأن انطوني أيدن، وزير الخارجية البريطاني آنذاك، هو الذي «أوحى» للدول العربية بإنشائها[٣٥] وذلك حين أبدى «عطفه» على أية بادرة يقوم بها العرب لتوثيق الروابط الثقافية والاقتصادية والسياسية في ما بينهم.

كيف استقبل العرب مبادرة لندن؟

في الصفحات المشار إليها من مذكراته السرية، يفسر عبد الرحمن عزام دافع الوطنيين من الساسة العرب إلى قبول الدعوة البريطانية: حيث يقول أن العرب التقطوا الفكرة واستغلوا حماس الانكليز لانشاء الجامعة العربية «حتى إذا تحقق حلم انشائها